

## الفصل الثامن

### نخبة الفاسدين الخارقين للطبيعة ( ١ )

#### هرطقة الروح الحرة ( ص ١٤٨ )

بالمقارنة مع القدر الكبير الذي كتب عن الهرطقة التي تعرف بأسماء مختلفة : الكاثارست و البيجنسيان والنيومانشيان نجد أن أدبيات هرطقة الروح الحرة أو الحرية الروحية ضئيلة في الواقع ، وهذا ليس مدهشاً بمجمله ، إذ بينما تحكمت هرطقة الكاثارست تماماً بالحياة الدينية لقسم كبير من جنوب فرنسا لمدة نصف قرن أو أكثر حتى تحطمت قوتها بفعل حملة صليبية غيرت تاريخ فرنسا ، نجد أن قصة أتباع الروح الحرة أقل وضوحاً في دراماتيكيته ، ومع ذلك ففي التاريخ الاجتماعي - تمييزاً له عن السياسي الصرف - لغرب أوروبا شغلت هرطقة الروح الحرة دوراً أكثر أهمية من الكاثارية ، والمنطقة التي امتدت فوقها كانت بمعايير القرون الوسطى واسعة ، ففي القرن الرابع عشر عندما أراد رجل في مورافيا الانضمام إلى واحدة من طوائفها اقتيد عبر أوروبا حتى قدم إلى واحدة في كولون ، في حين أن الأعضاء من النساء كن يتخذن طريقهن من كولون إلى طائفته في أعماق سـيليزيا على بعد ٤٠٠ ميلاً ، وبعد قرن مارست فرقة من الاتباع من بيكاردي نفوذاً ملموساً على ثورة التابوريت في بوهيميا ، وكان لهذه الحركة قدرة استثنائية على البقاء ، لأنه مع تعرضها للمضايقة باستمرار و للاضطهاد بقيت كتقليد معروف يمكن تمييزه لنحو خمسة قرون .

إن هرطقة الروح الحرة بناء عليه تتطلب مكاناً في أي عملية مسح للأخويات الثورية ، وهذا ما يزال صحيحاً مع أن رجالها لم يكونوا ثواراً اجتماعيين ولم تجد أتباعها بين الجماهير المتمردة من



والإساقفة ، والرسائل الجدلية لعلماء اللاهوت ، وما كشف عنه الاتباع المتحزرون من الوهم - في الحقيقة هي المصادر ( كما كان يعتقد كثيرا ) الوحيدة الموجودة ، وكما لاحظ الكهنة تكرارا برعب ، إن أتباع الروح الحرة قد أفرزوا أدبا مذهبيا وافرا خاصابهم ، ومع ان هذه الاعمال قد تم الاستيلاء عليها وتدميرها من قبل المحققين ، هناك مواد ثلاثة متوفرة للدراسة ، وكانت اثنتان منهم متوفرتين لسنوات عديدة : رسالة تدعى سبكويستر كاتيري ( الاخست كاترين ) ، كتبت في القرن الرابع عشر باللهجة الالمانية للطبقة الالمانية العالية والمتوسطة ، وحفظت بنسبتها - بشكل خاطيء تماما - الى الصوفي الدومينيكاني مايستر ايكهارت وقائمة عن « موضوعات العقيدة » باللاتينية اكتشفت في صومعة ناسك قرب الراين في القرن الخامس عشر ، وهي بالتاكيد اقدم من ذلك بكثير والموضوع الثالث هو نص صوفي طويل يدعى ( مرآة الارواح البسيطة ) نسب من قبل الى صوفي اصولي غامض ، وتم الان تحديد هوية هذا النص الان من قبل الاستاذة رومانا غوارمزييري على انه من اعمال خبيرة مشهورة بالروح الحرة ، هي مرغريت بوريت ، وقد احترقت مرغريت كمهرطقة في ١٢٠٠ وقد تحول كتابها ليصبح وثيقة رئيسة في تاريخ الروح الحرة واضطهادها .

وربما هناك نصوص اخرى مثلها ما تزال في انتظار الكشف . وفي الوقت نفسه إن ما هو متوفر بالفعل يمضي بعيدا ليظهر ان الروايات التي اعطاها الكاثوليك عن هرطقة الروح الحرة كانت ( ص ١٥٠ ) صحيحة فعلا ، ويمكن ان تردف بادلة اخرى ، من فقرة تالية ، ففي خلال الحرب الالهية الانكليزية وبعدها وجهت اتهامات ضد اعضاء طائفة معينة معروفين عند خصومهم باسم الصخابين ، كانت تكرارا للاتهامات التي وجهت في قرون سالفة الى خبراء الروح الحرة ، ومثل كتابات مهرطقي القرون الوسطى ، فان كتابات الصخابين حكم عليها بالاحراق ، ولكن نسخا قليلة نجت ، ويمكن مقارنة هذه الاعمال بالاتهامات وحتى تاريخ اعادة طبع عينات منها في الطبعة الاولى عن الدراسة الراهنة كانت هذه المادة قد أهملت عمليا من قبل

مؤرخي الروح الحرة ، وذلك على الرغم من علاقتها الكبيرة ،  
والعينات المعطاة في ملحق هذا الكتاب تغطي كامل مجال ديانة الروح  
الحرة من اكثر جوانبها روحانية الى اكثرها جفافا ، وهي تثبت  
بشكل حاسم انه في القرن السابع عشر كانت توجد بالفعل حركة  
قريبة الشبه بتلك التي ظهرت في مصادر القرون الوسطى بصورة اقل  
اكتمالا ، وفي اطرافها العام .

ويمكن تاريخيا اعتبار هرطقة الروح الحرة صورة محرفة من  
الصوفية التي ازدهرت بقوة في النصرانية الغربية من القرن الحادي  
عشر وما بعده ، وقد انبثقت الهرطقة الصوفية والارثونوكسية على  
السواء من الحاجة الماسة الى الفهم المباشر والصلة الحميمة مع  
الرب ، وكلاهما على السواء اكد القيمة الحدسية وبشكل خاص  
لأنجارب الوجدانية ، وكلاهما على السواء قد اثير الى حد كبير  
بإعادة اكتشاف الفلسفة الافلاطونية المحدثه التي اخذوا منها القسم  
الاكبر من جهازهم المفاهيمي ، وهنا مع ذلك ينتهي التشابه ، ولقد  
عاش الصوفيون الكاثوليك تجاربهم ضمن تقاليد وثقت وخلدت  
بكنيسة مؤسساتية كبيرة،وعندما - كما حدث كثيرا - انتقدوا هذه  
الكنيسة كان هدفهم تجديدها ، وكان اتباع الروح الحرة من جانب  
آخر غير موضوعيين بشدة ، ولايعترفون بسلطة على الاطلاق سوى  
خبرتهم الخاصة ، وفي نظرهم كانت الكنيسة في احسن الاحوال عقبة  
للخلاص ، وفي اسوأ الاحوال عدوا طاغيا - وعلى اي حال مؤسسة  
بالية يجب استبدالها الان بطانفتهم ، التي نظر اليها كوعاء للروح  
الحرة .

وكمن قلب هرطقة الروح الحرة في موقف كل واحد من الاتباع  
تجاه نفسه ، وقد اعتقد كل منهم انه بلغ درجة من الكمال المطلق  
لدرجة انه لم يعد قادرا على اقتتراف الاثم ، ومع ان النتائج العملية  
لهذا الاعتقاد يمكن ان تختلف ، فان احدى النتائج الممكنة كانت  
« الانتينوميانيزم »

او انكار المعايير الاخلاقية ، وكان الرجل الكامل يمكنه دائما ان

يصل الى محصله انه كان مسموحا له ، حتى وإن لم يكن الزاميا بالنسبة له ، ان يفعل كل ما كان عادة يعتبر ممنوعا ، وفي المدينة المسيحية التي كانت تعطي قيمة معينة للعفة ، وتعتبر الاتصال الجنسي خارج اطار الزواج عملا ( ص ١٥١ ) اثما بشكل خاص ، ومثل هذا الانكار للمعايير كان عادة ياخذ على الاكثر صورة الاتصال غير الشرعي من حيث المبدأ ، وكانت الاتهامات بهذا الاتصال غير الشرعي بالطبع كثيرا ما تصدر من طائفة دينية ضد اخرى ، ولقد كانت تقنية دينية اصيلة للهجوم في الكنيسة القديمة ، كما كانت في كنيسة العصور الوسطى ، ولكن عندما وجهت ضد اتباع الروح الحرة اتخذت هذه الاتهامات مظهر مختلفا ، وما ظهر عندئذ هو صورة مقنعة تماما من الشبق كانت بعيدة عن الانطلاق من العشق والانغماس في الشهوات بلا هموم تملك فوق كل شيء ، قيمة رمزية كعلاقة على الاعتناق الروحي ، وهي بالمصادفة القيمة التي كثيرا ماتملكها « الحب الحر » في ازماننا .

وفي منطقة امتداد النصرانية الغربية ، من غير الممكن تمييز هرطقة الروح الحرة بأي تأكيد قبل بداية القرن الثالث عشر ، ومن جانب اخر فان الديانات المشابهة قد ازدهرت قبل ذلك الوقت في كل من منطقة امتداد النصرانية الشرقية واسبانيا المسلمة ، وتقريبا منذ بداياتها ، كان على الكنيسة الارمنية ان تتغلب على الطائفة الصوفية المعروفة باسم اليوخيت او الميساليين التي ازدهرت في المنطقة حول الرها في وقت مبكر يعود الى القرن الرابع ، وكان اليوخيت « رجالا مقدسين » عانمين يعيشون من التسول ، وقد طوروا شعورا ذاتيا بالقدر والاهمية يعادل تساليه الذات ، ونكرانا للقيم كثيرا ما عبر عن نفسه في الشبق الفوضوي .

ونحو نهاية القرن الثاني عشر شهدت مدن اسبانية مختلفة وبشكل خاص اشبيلية نشاطات اخوة صوفية اسلامية ، وكان هؤلاء الناس يعرفون بالصوفية وكانوا « متسولين مقدسين » يهيمون في مجموعات من الشوارع والساحات في اسمال مرقعة متعددة الالوان

وكان المبتدئون بينهم يدرّبون على اذلال النفس وانكارها : وعليه ان يلبسوا الاسمال ، وان يبقوا عيونهم مثبتة على الارض ، وان ياكلوا المواد الغذائية المقززة للنفس ، وان يدينوا بالطاعة العمياء لرئيس الجماعة ، ولكن ما ان ينتقلوا من حداثتهم كان هؤلاء الصوفيون يدخلون عالما من الحرية التامة ، ينكرون حفظ - الكتب والدقة الدينية ، لقد كانوا يتمتعون بالمعرفة المباشرة للرب - وفي الواقع انهم شعروا بانهم متحدّين مع الجوهر الالهي في اتحاد حميم للغاية ، وهذا بدوره حرّهم من كل القيود ، وكل نبضة كانت امرا الهيا ، والان يمكنهم ان يحيطوا انفسهم بممتلكات دنيوية ، ويمكنهم ان يعيشوا في ترف - والان ايضا يمكنهم ان يكذبوا وان يسرقوا او يزنوا دون وخز ضمير ، فطالما اندمجت الروح من الداخل بالرب ، فان الاعمال الظاهرية لم يكن لها اعتبار .

ومن المحتمل ان الصوفية و قد تطورت من القرن التاسع ومابعده ، كانت هي نفسها مدينة بالكثير لبعض الطوائف الصوفية المسيحية في الشرق ، وبدورها يبدو ( ص ١٥٢ ) انها قد ساعدت على نمو صوفية الروح الحرة في اوربا المسيحية ، وبالتأكيد ان كل سمة من السمات التي تميزت بها صوفية القرن الثاني عشر في إسبانيا - حتى في كثير من التفاصيل مثل الملابس المرقعة متعددة الألوان - ستتم ملاحظتها كأنماط لما تبناه أتباع الروح الحرة بعد قرن أو اثنين من الزمان .

وعلى أي حال في نحو ١٢٠٠ بدأت ديانة الروح الحرة في الظهور بمثابة هرطقة متميزة تماما في المسيحية الغربية .

## العموريون

في وقت مبكر في القرن الثالث عشر كان مذهب الروح الحرة قد توسع إلى نظام ديني وفلسفي شامل ، وكان هذا عمل مجموعة بالغة الأهمية ، تضم رجالا درّبوا في أعظم مدرسة للديانة الارثوذكسية في

النصرانية الغربية ، أي جامعة باريس ، وقد أعطيت الرواية الكاملة من قبل المؤرخ الألماني ، راعي دير هيسسترباخ الذي كتب يقول : « في مدينة باريس ينبوع كل المعرفة وبئر الكتابات الالهية ، طبع الشيطان بالتحريض في الذهن فهما خاطئا لدى كثير من العلماء والمتقنين » ولقد كانت عدتهم أربعة عشر شخصا كلهم من الكهنة ، وقسس الأبرشيات والقصور والشمامسة والقندلفتية من باريس وضواحيها ومن مدن مثل بواتيه ، ولوريس قُرب أورليانس وترويس « رجال ذوي معرفة كبيرة وإدراك » ، هكذا بكاهم المؤرخ نفسه ، وبالجملة يبدو الوصف مسوغا : إن تسعة من الأربعة عشر درسوا اللاهوت في باريس ، ويقال إن إثنين كانا في العقد السابع من العمر ، وكان قائدهم رجل اسمه وليم ، وهو أيضا كاهن مختص باللاهوت وكان يعرف بالاور يفكس مما أدى إلى اعتباره صانعا ولكن ربما كان هذا يعني أنه كان كيميائيا فلسفيا ، ذلك أنه غالبا مارمز بالذهب إلى القوى السحرية الكامنة في النفس التي طمح مثل هذا الكيماوي إلى إيقاظها .

وجزئيا بسبب حماقة وليم ، أو التجسس المنظم بواسطة اسقف باريس ، اكتشف المهرطقون وطردوا . وباستجوابهم في مجمع عقد برئاسة رئيس أساقفة سنز ، ارتد ثلاثة وحكم عليهم بالسجن مدى الحياة ، ولكن البقية صرحوا علنا بمعتقداتهم الهرطقية وأحرقوا طبقا لذلك ، وحتى في لحظة الموت لم يظهروا أي علامة على الندم .

ويمكن لتعليق المؤرخ أن يستحضر في الذهن جو تلك اللحظة : « وهم يقادون للعقاب قامت عاصفة غاضبة حتى لم يشك أحد في أن الهواء قد أثير من قبل الكائنات التي أغوت أولئك الرجال ، الذين أصبحوا الآن على وشك الموت ، بسبب ذنبهم العظيم ، وفي تلك الليلة طرق الرجل الذي كان رئيسا لهم باب امرأة معتزلة . واعترف بذنبه في ( ص ١٥٣ ) وقت متأخر جدا وأعلن أنه كان الآن ضيفا هاما في الجحيم ومحكوم عليه بالنار الأبدية » وكان المعلم الفلسفي لهؤلاء المتعصبين عبوري أوف بين محاضرا لامعا في المنطق واللاهوت في

جامعة باريس ، وقد تمتع هذا الرجل في وقت واحد بهيئة عظيمة وبرعاية البلاط الملكي ، وكان بين أصدقائه عدد من الشخصيات البارزة بينهم زوجة الابن البكر للملك وكانوا متأثرين بأفكاره ، ولكن في النهاية وقد شجب أخيرا لتعليمه مذهباً خاطئاً ، أدين من قبل البابا وأجبر على الارتداد العلني ، وقد حطمت هذه التجربة روح عموري ، فلزم فراشه وبعد فترة قصيرة - في ١٢٠٦ أو ١٢٠٧ - توفي ، وعندما اكتشفت هذه الطائفة المهرطقة بعد ذلك بعامين أو ثلاثة أعلن الاكليروس على الفور مسؤولية عموري وأطلقوا على المهرطقين اسم « المريكان أو العموريين » . وقبل إعدامهم بالفعل عمدت رسالة مضادة للعموريين ، وبعد بضع سنوات ، في ١٢١٥ كان الكاردينال روبرت أوف لورسون القاصد الرسولي ، الذي كان مخولاً بصياغة القوانين للجامعة دقيقاً في منع كل دراسة « الملخص مذهب عموري المهرطق » . وفي مجمع اللاتيران لسنة نفسها أصدر انوسنت الثالث حكمه في مرسوم قال فيه : « إننا نشجب وندين العقيدة المنحرفة لعموري العاق ، الذي كان قد أعمى عقله أبو الكذب حتى أن مذهبهم لا يعتبر هرطقة بقدر ما هو جنون » وفي الوقت نفسه الذي أحرق فيه أفراد الطائفة نبشت عظام عموري ونقلت إلى أرض غير مقدسة .

وكل ما هو معروف بشكل مؤكد عن مذهب عموري أنه كان من الصوفية المؤمنين بوحدة الوجود ، التي تدين بالكثير لتقاليد الافلاطونية المحدثه وبشكل خاص للاشرح الافضل للافلاطونية المحدثه الذي تم في أوروبا الغربية بعنوان « أقسام الطبيعة » لجوهان سكوتس إريجينا . وهذا الكتاب الذي كان عمره ثلاثة قرون ونصف القرن لم تسلف إدانته بالهرطقة من قبل ، ولكن الفائدة التي استمدها عموري منه أدت إلى إدانته من قبل مجمع سنز في ١٢٢٥ ، وحامت الشكوك أيضاً حول الملخصات العربية والحواشي على أرسطو التي كانت قد بدأت لتوها تظهر مترجمة إلى اللاتينية في باريس ، وأدان المجمع الذي أدان العموريين أيضاً هذه الأعمال وأبدى كورسون تحفظات ضد دراستها في قوانين الجامعة

في ١٢١٥ ، وإنها حقيقة غريبة انه لدى أول ظهور للعملاق الفكري في أوروبا الذي كان عليه أن يضع إطار الفلسفة الأصولية للعصور الوسطى قد حذر للشك في إلهامه لعموري أوف بين ، ولكن هناك القليل في أي من هذه التأملات الميتافيزيقية الغيبية مما يفسر المذهب المتفجر الذي اكتشف في ١٢٠٩ .

وسيكون دائما موضع شك مدى مسؤولية عموري الحقيقية عن مذهب العموريين . ( ص ١٥٤ ) لقد كان عموري فيلسوفا محترفا ، وكانت للعموريين اهتمامات مختلفة تماما في كل تعليمهم الجامعي ، فلقد كانوا متنبئين غير مهتمين بالأفكار المجردة بل بالاشتغال بالانفعالات المضطربة في دنيا العامة ، وكان حقيقيا بالنسبة لهم كما بالنسبة للمتنبئين الآخرين أنهم فرضوا أنفسهم كرجال مقدسين موهوبين بالقوى المعجزة ، وعلق واحد من خصومهم عليهم بقوله : « خارجيا في الوجه والقول ، تبدو عليهم سيماء » ، وكان لهذا السبب بالتأكيد أن تعاليمهم كانت مقبولة بلهفة ، وعلاوة على ذلك كانوا مثل معظم الوعاظ « الرسولين » قد عملوا في المراكز التجارية الكبيرة ، وكان معقلهم الرئيس على ما يبدو ترويس في شامبين وكانت في حينه المدينة الأكثر أهمية على الطريق من فلاندرز إلى ليون ، وفي ترويس اعتقل فارس بدا أنه كان من أتباع العموريين وأحرق في ١٢٢٠ ، وترددت في ليون أصداء الهرطقة في وقت متأخر يعود إلى ١٢٢٥ . ووجد الجاسوس الذي تغلغل في الطائفة نفسه هائما مع عدد من المبشرين في أنحاء مقاطعة شامبين ، وكانت شامبين مثلها مثل فلاندرز أرضا فرض فيها سلسلة من الحكام الأقوياء السلام وبذلك تمكن السكان من النمو ومن تطوير التجارة والصناعة ، ووجدت هناك صناعة أقمشة مزدهرة ، كما وإن هناك ملتقى للطرق التجارية من البحر المتوسط إلى المانيا ومن فلاندرز إلى وسط وشرق أوروبا ، ومع القرن الثالث عشر كانت المعارض الكبيرة في شامبين قد أصبحت مراكز كبرى للتجارة ، وفي تلك المنطقة المتمدية الكثيفة السكان كان المبشرون ينتقلون من اجتماع سري إلى آخر ، حيث كانوا يغيبون في حاله من

الوجد ويرون الرؤى ، وكانوا يعظون بنصوص من الكتب المقدسة ويفسرونها تفسيرا هرطقيا ، وهكذا كما أخبرنا كانوا يفنون أعدادا غفيرة من الناس الأبرياء . بل حتى لقد أنتجت الطائفة أديبا خاصا بها يصلح لاستعمال العامة ، وقد أدان مجمع باريس ، إلى جانب التأويلات الباطنية الأرسطوطالية كثيرا من الأعمال الدينية الشعبية الصرفة التي كانت كلها باللغة العامية .

وقد حافظ العموريون على مبدأ معلمهم في وحدة الوجود ولكنهم أعطوه محتوى عاطفيا قويا ووجد المجمع أنهم كانوا يتحدثون بلغة أن الله والطبيعة شيء واحد وأن الكون المادي والانسان ليسا إلا مظاهر للذات الالهية ، وصرحوا في إحدى المناسبات بعقيدة أنهم يرون « الأشياء واحد لأن كل ما هو كائن هو الله » ولكن ما هو أكثر إثارة للدهشة هو النتيجة التي استخرجها أحد الثلاثة من زعماء الفتنة من هذا الافتراض : « لقد تجرأ على التأكيد على أنه إلى الحد الذي كان فيه لا يمكن أن تلتهمه النار ولا أن يعذب ، لأنه عند الحد الذي كان فيه ، كان هو الرب » . ويمكن للمرء أن يلمس الافلاطونية المحدثة

ولكن مثل هذه القوة بالتأكيد ، في رجل يحاكم طلبا لحياته ، لا تستمد من مجرد تأمل في وحدة الوجود • ومصدرها في الواقع كامن في مكان آخر ، لقد كمن في صوفية الروح الحرة ، وعندما ادعى العموريون أن كل واحد منهم كان مسيحا وروحا مقدسة ، عنوا كل ما عناه تانزيلم وكانوا قانعين أن ما تعتبره الديانة المسيحية معجزة فريدة للتجسد قد تكررت الآن في كل واحد منهم •

و كانوا في الواقع يعتقدون أن التجسيد كما حدث في المسيح قد تم تجاوزه ، لأن هؤلاء المتنبئين - الفرنسيين - قد توصلوا إلى تفسير للتاريخ ذي شبه مدهش بتفسير يواكيم أوف فيور ، ومع ذلك فقد استمدوا نتائج مختلفة جدا منه حيث أنهم في ذلك التاريخ ، المبكر كانوا بالكاد قد عرفوا الكثير حول المذهب الدفين في مخطوطات دير الكالابري، ومثلهم مثل يواكيم رأى العموريون التاريخ مقسما

الى ثلاثة عصور ، تتوافق مع الشخصيات الثلاثة للثالوث المقدس ، ولكن خلافا له ، اعتقدوا أن كل عصر له تجسيده الموائم ، و منذ بداية العالم حتى مولد المسيح تصرف الأب وحده ، وقد تجسد في ابراهيم ، وربما في الأنبياء الآخرين للعهد القديم أيضا ، والعصر منذ ميلاد المسيح كان عصر الابن ، ولكن الآن كان بدء عصر الروح القدس ، الذي سوف يستمر حتى نهاية العالم ، وقدر لهذا العصر ان يتميز بأخر وأكبر التجسيديات ، لقد كان دور الروح كمي يستخدم الجسد وكان العموريون اول الرجال الذين فعل بهم ذلك ، او اول «الروحانيين» ، كما دعوا أنفسهم.

و لم يتوقع العموريون ان يبقوا الأرباب الأحياء الوحيدين على وجه الأرض ، بل بالأحرى أنهم سيقودون الجنس البشري كله الى الكمال ، و من خلالهم ستتكلم الروح القدس العالم ، ولكن كنتيجة لنطقها سيصبح التجسد أكثر عمومية ، حتى يصبح شاملا في وقت قريب ، وتحت ارشاد «الروحانيين» كانت الدنيا تدخل عصرها السامي ، وفيه يصبح كل رجل ويعرف في نفسه انه اله وقد تنبأ انه «خلال خمس سنوات» ، سيكون كل الرجال روحانيين حتى ان كلا منهم سيكون قادرا على ان يقول : «انا الروح القدس» ، وقبل ان يكون ابراهيم انا» ، تماما كما استطاع المسيح ان يقول «انا ابن الله» و «قبل ابراهيم انا» و مع ذلك ان هذا لم يعن انه في الايمان العموري بالأخريات لم تعد المملكة محفوظة لصفوة القديسين ، و كانت أفكار أولئك المفكرين الغامضين منصبة في تعاليم التخيلات المسائحية التي كانت شائعة بين الجماهير ، و قد تنبأ وليم الصايغ انه خلال هذه السنوات الانتقالية الخمسة نفسها سيمر العالم بسلسلة من الكوارث - «المحن المسائحية» - التي سيهلك فيها غالبية الجنس البشري ، حيث يقتل بعضهم في الحروب والمجاعات ، و يبتلع آخرون في هاوية الأرض ، وتلتهم بعضهم النار النازلة من الأعلى ، مما يوضح بدرجة كافية «ان بقية صالحه» كان يتوقع ان تنجو لتتنوق مباحج الألوهية ، علاوة على ذلك لم يعد عصر ( ص ١٥٦ ) الروح لدى العموريين كما كان بين اليواكيمييين الألمان

يطرد التخيلات الأقدم المتركزة في الإمبراطور الأخير ليحل محلها ، إن سنوات الاضطراب الخمسة قدر لها أن تبلغ أوجها في هزيمة المسيح الدجال وجنوده ، الذين لم يكونوا سوى البابا وكنيسة روما ، وبعد ذلك ستكون كل الممالك تحت هيمنة ملك فرنسا ، وكان في البداية الملك الحاكم فيليب أوغسطس ، و لكن فيما بعد صديق عموري وراعيه ابن الملك البكر ، الذي لن يموت أبدا ، بل سيحكم العالم إلى الأبد في عصر الروح . و« سيعطى ملك الفرنسيين اثني عشر رغيفا ، بمعنى (يمكن للمرء أن يفترض) أن لويس الثامن سيكون مسيحا ثانيا ، و سيكون مثله مثل تانزيم تماما ، واستاذ هنغاريا ، سيتراس مجلسا سريريا أو مجمعا مقدسا من اثني عشر صيغ على نمط الحواريين الأثني عشر .

و كان يعتقد أن العموريين - وربما كان ذلك صحيحا - صوفية متناقضين . وراى راعي دير القديس فيكتور قرب باريس - الدير الذي كان في ذلك الوقت يتزعم كل النصرانية الغربية في النظرية و التطبيق الصوفي - ضرورة لتحذير رهبانه من تلك النتائج الخطيرة لتلك الصوفية المنحرفة « لنلا تلوث تلك المدينة ، منيع المعرفة بهذا الوباء » . وصاح «هناك بدع تجديفية دنسة » يأتي بها اناس هم من حواريي ابيقور بدلا من المسيح ، وبالخداع الخطر يكدون سرا ليقنعوا الناس ان المدنيين لن يعاقبوا قائلين ان الخطيئة لاشيء ، حتى ان اي إنسان لن يعاقب عليها من قبل الرب ، و اذا كانوا ظاهريا في الوجه والكلام يبدون ورعين فان جدارة هذا الورع تذكر داخليا ، في عقولهم وفي خططهم السرية ، ولكن الجنون الفائق والزيغ البالغ الوقاحة هو ان هؤلاء الرجال لا يخشون ولا يخجلون من القول بأنهم الرب ، اي حمق بلا حدود ، اي جراءة بغيضة ان زانيا ، عشيقا ذكرا ، يوقع الكأبة في النفس بالعار وسوء السمعة ، وعاء للخطيئة ، يدعى ربا « وهنا كما حدث كثيرا افراط في تقدير الذات يعبر عن نفسه فوق كل شي بالفسق الشامل : « لقد ارتكبوا الاغتصاب والزنا والأعمال الأخرى التي تمنع السرور للجسد ، و وعدوا النساء اللواتي أثنى

معهن ، والبسطاء الذين خدعوهم بأن الخطيئة لن تعاقب » ، لقد كان هذا اعتراضا سييلفظ مرات ومرات وبسبب جيد ، خلال القرون التالية .

## علم اجتماع الروح الحرة

إنه صحيح بالنسبة لكل حركات الهرطقة الكبيرة من أواخر العصور الوسطى أنه يمكن فهمها فقط في إطار ديانة الفقر الطوعي ، عندما ظهرت من القرن الثاني عشر وما بعده (ص: ١٥٧) ثروة لم يسمع عنها من قبل في غرب أوروبا ، واستمتع معظم الذين استمتعوا ، بالفرص الجديدة للتصرف والتباهي ، ولكن كان هناك دائما بعضا من راوا في المباحج الجديدة إغراءات كثيرة للشيطان وشعروا بأنهم مدفوعون لشجب كل الصفات الملكية ، والسلطة والمزايا والنزول الى الجماهير التي خربها الفقر ، وطالما أن التضاد بين الغنى والفقر كان مذهلا الى حد بعيد في المدن أكثر منه في الضياع ، فقد كان في المدن أن أحرز العوز أهميته الخاصة

وكان التلهف على التخلي الطوعي غير محصور في أي طبقة واحدة ، فقد كان يمكن الشعور به أحيانا في طبقة التجار ، التي كانت بين كل الطبقات تستأثر بأكبر المنافع المادية في الظروف الجديدة و جاء أكثر المتحولين شهرة الى الفقر الطوعي . بطرس فالدو مؤسس طائفة الهرطقة المعروفة باسم الفالدونيين والقديس فرانسيس كلاهما من تلك الطبقة ، وكانت أدنى طبقات الكهنوت المدني التي كانت تلقى المدد والتعزيز من الطبقة الأدنى من المجتمع كانت أيضا قلقة مشوشة ، وكان كثير من الكهنة يحتجون على الأبهة والدينونة التي يغرق فيها الأساقفة والمطارنة الكبار ويهجرون أبرشياتهم لاتباع حياة فقر كلي ، وشعر العديد من رجال الدين والكتاب في الرهبانيات الدنيا - والمفكرين وهم كثيرا ماكانوا من ذوي التعليم الكبير - بدافع مماثل ، وليس هناك من

شك انه طالما ان الفلاحين والحرفيين يمكنهم الانضمام الى حملة صليبية او موكب لطامين ، وبذلك يستطيعون احيانا استبدال فقرهم الطبيعي ، الذي كان لامفر منه بعوز ارادي اكثر تطرفا ، وعليه كانوا يشعرون بانهم اهل للمكافأة ، وفي الأوصاف المعاصرة للفقراء الطوعيين هناك اشارات كثيرة للنساجين ، واذا كان كثير من هؤلاء في القرن الثنائي عشر من الزاهدين الذين في طلبهم للفقر أصبحوا عمالا في الصناعة الوحيدة التي كانت متطورة بدرجة كافية لاستخدام العمالة المؤقتة فانه من القرن الثالث عشر ومابعده انضم اليهم بالتأكيد حرفيون حقيقيون .

وقد شكّل الفقراء الطوعيون طليعة اجتماعية وسياسية قلقة غير ثابتة ، وكان أعضاؤها يذنبون باستمرار على طرق التجارة من مدينة لأخرى ويعملون على الأغلب في الخفاء ويجدون من يستمع اليهم ، واتباعا بين كل العناصر القلقة المشوشة في مجتمعات المدن ، وقد رأوا في أنفسهم فقط الأسباب الحقيقية للرسول ، وفي الحقيقة للمسويح ، وسما طريقتهم في الحياة « بالرسولية » وصعدوا الى منتصف القرن الثاني عشر كان لهذا السبب اكثر منه بسبب اي مذهب دينية غريبة انهم كانوا احيانا يدانون بالهرطقة ، ولكن منذ النصف الثاني للقرن الثاني عشر ومابعده اظهرت تلك الحشود من الطوائف « المتسولين المقدسين » من كلا الجنسين استعدادها لتمثل اي ، لابل ، كل مذهب للهرطقة كان موجودا ، واذا كان الكثيرون قد أصبحوا كاثاريين او فالدونيين (ص ١٥٨ ) او يواكميين كان هناك ايضا من اصبح من اتباع وناشري هرطقة الروح الحرة ، وحدث بالفعل حوالي ١٢٣٠ في مقاطعة تانزيلم القديمة - انتويرب - ان كان هناك شخص اسمه وليم كورنيس يبين مدى سهولة الجمع بين السمات الخارقة للطبيعة التي كانت سمة مميزة جدا لتلك الهرطقة وديانة الفقر ، اراديا او ليس اراديا تماما ، وبالنسبة لهذا الرجل الذي تخلى هو نفسه عن مرتبة كنسية ذات دخل من اجل اتباع الحياة « الرسولية » اعلن انه في الوقت الذي كان فيه الرهبان

ملعونين تماما لعدم التزامهم بالفقر التام ، كان الفقر الذي يتبع بشكل كامل يمحو كل الخطايا ، وتبع ذلك انه الفقير كان يمكنه مثلا ان يزني دون ان يكون اثما ، وبالفعل يقال ان كورنيلس نفسه كان « مستسلما تماما للشبق » وبعد عشرين سنة واكثر كانت السلطات الاكليريوسية مازالت تحاول استئصال مثل هذه الافكار من بين سكان انتويرب ، وفي حينه كان الناس يتمسكون بأن كل الأغنياء فاسدون بسبب البخل ، وكانوا ملعونين بشكل مؤكد حتى ان امتلاك غيار من الملابس كان يشكل عقبة في طريق الخلاف ، وان يدعو رجلا غنيا للعشاء كان ذنبا عظيما ، لأن الصواب ان تأخذ من الغني من أجل ان تعطي الفقير ، ولكن الفقراء من جانب آخر كانوا بالضرورة في حالة من النعمة لا يمكن للانغماس الجسدي بأي طريقة ان يفسدها .

وفي وقت مبكر من القرن الثالث عشر ظهرت مراتب الرهبان المتسولين الكبيرة ، ، الفرنسيسكان ، والدومنيكان وبنات بمساعدة من الكنيسة تفعل الكثير مما كان المهراطيين الرسوليون يفعلونه لمعارضة الكنيسة ، وقد انضمت نخبة الى تلك المراتب كوعاظ متجولين وكانوا يطبقون الفقر وكل نوع من انواع انكار الذات ، وكسبوا إخلاص جماهير المدنيين وفي الوقت نفسه انضمت اعداد كبيرة من أهل المدن الى الفرنسيسكان ومرتبة الدومنيكان الثالثة ، وبينما كانوا يعيشون في المجتمع كعامة الناس فانهم كانوا ينافسون الأخوة الرهبان النظاميين في زهدهم ، وبإقرار مراتب الرهبان المتسولين كانت الكنيسة لفترة من الزمن قادرة على التحكم والاستفادة من الطاقات الانفعالية التي كانت تهدد امنها ، ولكن بالفعل بحلول منتصف القرن أصبحت هذه الطريقة من التصريف اقل فعالية حيث فقدت المراتب كثيرا من حماسها الاولى ، وأصبح زهدا أقل صلابة ، وضاعت هيبتها بالتالي ، ووجدت الكنيسة نفسها مرة أخرى في مواجهة مجموعات مستقلة من الفقراء الاختياريين ، وانفصلت المجموعات ذات الزهد المفرط على اختلافها في أوروبا عن الجسم الرئيسي للفرنسيسكان



يسمون في القرن الرابع عشر ) أخوة الروح الحرة انهم ليسوا اقل زهدا من المهزطقين « الرسوليين » للأجيال القديمة ، واستوطن بعضهم قرب المدن وعاشوا كنسك ، على العطايا التي كان يجلبها لهم المعجبون ، وفي حالة واحدة على الأقل في كولون شغلت طائفة من البيغرد المهزطقون « بيتا للفقر الطوعي » وعاشت على الصدقات التي أمكنهم جمعها من الشوارع ، وكثيرا ما كان مثل هؤلاء الناس يتبعون الحياة الهائمة نفسها بلا ممتلكات ولا بيوت مثل البيغرد الآخرين ، ولم يكن لبعضهم اي مقرر ثابت بالمرّة ، ولا يحملون شينا ويرفضون الدخول الى أي بيت ويصرون على البقاء في الطريق يأكلون أي طعام يقدم لهم ، و - مرة أخرى مثل بقية « الفقراء الطوعيين » - كانوا يشملون أناسا ينحدرون من اسلاف اجتماعية متنوعة جدا ، و اذا سمعنا عن اخوة للروح الحرة ممن كانوا حرفيين ، فإننا نسمع عن آخرين ممن جاءوا من عائلات مزدهرة راسخة الاصول - ومن اخرى ايضا - كما في كل الحركات المسانحية - جاءت من الطبقات الأقل ثراء من اهل الفكر الذين كانوا يشكلون الطليعة السياسية والاجتماعية : رهبان سالفون وكهنة وكتاب من مراتب صغيرة ، ولكن الكل على السواء يبدو انهم كانوا مثقفين وواضحين : ومرات ومرات نجد ان الكهنة الذين كان عليهم محاربة هؤلاء الناس فزعين من الدمائه والبلاغة في تعليمهم ، ومن (ص ١٦٠) المهارة التي كانوا يعالجون بها المفاهيم الدينية العويصة والمبهمّة .

ومثل أي متنبئ آخر كان الواحد من أتباع الروح الحرة يدين بصعوده لسمعته في الزهد ، التي تعتبر كضمانة تقوي صنع الأعمال الخارقة ، وجزئيا لمؤهلاته الشخصية من البلاغة والوقفة والقدرة على الاحتمال ، ولكن الاتباع الذين كان يبحث عنهم كانوا مختلفين عن أتباع المتنبئين الآخرين ، انه لم يكن يروق لمن لا أصل لهم والمشوشين الفقراء بل للناس الذين لديهم اسبابا أخرى أقل دفعا للشعور بالضياع والاحباط : للنساء ولاسيما غير المتزوجات والارامل في الطبقات العليا من المجتمع المدني ، وبسبب الحروب

المستمرة الى حد ما ، والنزعات ، وجزئيا بسبب البتولة في هذا القطاع الكبير جدا من السكان الذكور الذين شكّلوا الأكليروس النظامي والمدني ، كان عدد النساء دائما يفوق كثيرا اعداد الأزواج المحتملين ، وفي طبقات الفلاحين والحرفيين كانت العوانس والأرامل يمتهن الصناعة والزراعة ، وفي الأرستقراطية منها كان يمكنهن دائما ان يصبحن راهبات ، وبالنسبة للنساء المولودات في عائلات أغنياء التجار ، من جانب آخر ، لم يقدم مجتمع العصور الوسطى دورا معروفا سوى الزواج ، وليس مدهشما ان العوانس والأرامل اللواتي لاحاجة لهن للعمل وحتى بدون واجبات منزلية يؤدينها ، ولايشغلن رتبة محددة ولايتمتعن بأي تقدير اجتماعي - كثيرا ماكن يتشوقن بالقوة نفسها كسائر الجماهير من الفقراء الى مخلص ما ، الى رجل مقدس بمساعدته يمكنهن بلوغ تفوق بالكمال نفسه الذي عليه ضعتهم ، وفي كل الأزمات شغلت نساء كهؤلاء دورا كبيرا في حركة هرطقة الروح الحرة وعن العموريين علمنا بالفعل انهن عملن كمـرشدات روحيات غير مخـولات « في بيوت الأرائل » ، وعندما قبض عليهن جرى ايضا احضار عدد كبير من التابعات من الأناث الذين « افسدوهن وخذعوهن » الى باريس لاستجوابهن ، وفي اجيال تالية وحتى نهاية العصور الوسطى كانت الحركة مدينة بالكثير للنساء المعروفات باسم البيغويين - نساء المدن - وكثيرا ماكن من اسرثرية ، كرسن أنفسهن لحياة دينية بينما كن يتابعن الحياة في الدنيا ، وخلال القرن الثالث عشر ، اصبح البيغويين عديدات جدا في المنطقة التي تعرف الآن ببلجيكا ، وفي شمال فرنسا ، وفي وادي الراين - وكان في كولون الفين من البيغويين - وفي بافاريا وسط المانيا في مدن مثل مغدبرغ ، وكعلامة على حالتهم تبني هؤلاء النساء لباسا دينيا عبارة عن رداء ذا قلنسوة من الصوف الرمادي او الأسود وحجابا ولكن لم تكن هناك طريقة واحدة شائعة بالنسبة لهن جميعا ، وعاش بعضهن حياة - باستثناء بعض التوجيهات الدينية العامة اختلفت قليلا عن حياة النساء الأخريات ، لقد كن يعشن مع عائلتهن ( ص ١٦١ ) او يستمتعن بدخل خاص ، او يدعمن

انفسهن بالعمل ، وكانت أخريات يعشن حياة غير مرتبطة كراهبات  
متسولات جوالات : نظيرات حقيقيات من الاناث للبيغزد ، ومعظم  
البيغويين على أي حال كن يشكلن انفسهن في جماعات دينية غير  
رسمية ، ويعشن معا في بيت او مجموعة من البيوت ، وبالنسبة  
للكنيسة كانت هذه الحركة النسائية واسعة الانتشار تمثل المشكلة  
نفسها ، مثل اختها الحركة « الرسولية » بين الرجال وبالفعل في  
النصف الثاني من القرن الثالث عشر جذبت البيغويات المتسولات  
اللائي يستجدين اما لانفسهن او نيابة عن جماعة ما ، شك  
السلطات الكهنوتية ، والى جانب نظرائهن البيغزد تمت ادانتهم من  
قبل مجلس ابرشية مينز في ١٢٥٩ ، وقد تكررت الادانة في  
١٣١٠ ، وقد حرمت هذه المجالس « الشـحـاذين  
المقدسـين » ، الذين كانوا يميزون انفسهم بالسلوك واللباس عن  
المسيحيين الآخرين ، وامرت بطردهم اذا رفضوا اصلاح طريقتهم  
من كل الأبرشيات ، وفي الوقت نفسه بدأت أصولية البيغويين تصبح  
مسألة موضع بحث من جديد ، وفي وادي الراين كان الرهبان  
ممنوعين من الكلام مع أي بيغويين الا في كنيسة او في حضور شهود  
وبالنسبة للراهب كان دخول بيت البيغويين يستلزم العقاب  
بالحرمان ، وتضمنت التقارير حول الاساءات في الكنيسة التي  
تقدمت للاعداد من أجل المجمع المسكوني في ليون في ١٢٧٤ ،  
شكاوى عديدة ضد البيغويين ، وروى أحد الفرنسيسكان من تورناي  
أن البيغويات مع أنهم كن غير مدربات في اللاهوت كن مبتهجات  
بالأفكار الجديدة المفرطة الصقل فلقد ترجمن الكتب المقدسة إلى  
الفرنسية ونشرن خفاياها ، وحاضرن فيها بلا وقار في اجتماعاتهن  
وفي الطرقات ، وكانت الأناجيل العامية المليئة بالأخطاء والهـرطقات  
متوفرة للعموم في باريس ، وشكا أسقف الماني شرقي من أن أولئك  
النسوة كن كسولات منهنكات في نشر الشائعات وشريرات يرفضن  
إطاعة الرجال بذريعة أن الرب يخدم بشكل أفضل مع الحرية .

ولم يكن لدى البيغويين مقاصد هرطقية عملية ثابتة ، ولكن كانت  
لديهن رغبة عميقة لأكثر صور الخبرات الصوفية تزمنا ، وكان

يشارك في هذه الرغبة بالطبع كثير من الراهبات ، فقط لأن صوفية البيغويين كان فيها إغراءات كانت الراهبات عادة ممنوعات منها ، وكان ينقص البيغويين تنظيم المراتب النظامية ، وفي الوقت نفسه لم يحظين بإشراف مناسب من الاكليروس المدني ، الذي كان تعاطفه قليلا مع هذا التدين العصري الجريء ، وإنه حق أن أخوة الرهبنة كانت أفضل قدرة على توجيه الطاقات الانفعالية لدى تلك النسوة ، ولهذا خدمت الكنيسة ولم تهددها ، وفي النصف الأول من القرن الرابع عشر كانت كل جماعات البيغويين تقريبا منتسبة إلى الفرنسيين والبريطانيين والمرايب الثالثة من الدومينيكان . ( ص ١٦٢ ) ولكن أخوة الرهبنة لم تنجح أبدا في السيطرة على الحركة كلها ، وبدقة نجد بين أكثر البيغويين زهدا بعضا ممن قبلن كموجهين روحيين لأنفسهم ليس واحدا من أخوة الرهبانية بل من أخوة الروح الحرة . وبحلول ١٣٢٠ دفع الاضطهاد بحركة الروح الحرة إلى السرية ، وبعد ذلك بدأ أن البيغويين المهترقين قد أصبحوا أقل تسولا وأنهم قد اعتمدوا بالأحرى على فهم تأمري كانوا قادرين على تطويره باتفاق مع بعض طوائف البيغويين .

وعندما كان مبشر من الروح الحرة يدنو من مثل هذه الجماعات كان يؤخذ على الفور ويقدم له المأوى والطعام ، وتحت قسَم المحافظة على السرية أرسلت الأخبار إلى جماعات ميالة للتعاطف إن « ملاك الكلمة الالهية » قد وصل وإنه ينتظر في مخبئه ، وتدفتت جماعات البيغويين من كل صوب للاستماع إلى الرجل المقدس وكان البيغويين يعظ بمذهبه الصوفي ، المغلف بعبارات معقدة ، وكما قال أحد المؤرخين : « بكلمات لطيفة بشكل لا يصدق وبروحانية سامية وغيبية بقدر ما يمكن للسان الألماني أن يتدبرها » ، ولهذا نجد البيغويين يعلنون وهن منتشيات أنه « رجل له شبه كبير بالرب والفة عظيمة معه » . وكان بهذه الوسيلة وفي هذا الوسط أن حفظ المذهب وتطور وأصبحت الفية الروح الحرة امبراطورية خفية ، تمسك بها معا روابط عاطفية - التي بالطبع كثيرا ماكانت روابط جنسية - بين الرجال والنساء .